الدرس الأول

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟
فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

(الحجر: ١-١٥) .

ذوات (الٓر) :

وهي سورة تبدأ بالحروف المقطَّعة ككثير من سُور القرآن ، وهي من ذوات ﴿ الٓر ﴾ ، وقد افْتُتِحت بها ستُّ سور من القرآن الكريم ، وهي : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، وخُتمت بسورة الحجر .

وتميَّزت كلُّها بأنها تتحدَّث عن قَصَص الأنبياء ، وسُمِّيت بأسمائهم ، إلا سورة الرعد فلم تتحدَّث عن أحدٍ من الأنبياء ، كما تميَّزت بشيءٍ آخر أنها بُدأت بـ ﴿ الٓمٓر ﴾ .

وهذه السورة بدأت بـ ﴿ الٓر ﴾ ، وهي سورة الحِجْر .

OBEIKAN.COM

والمقصود بالحِجر : (حِجْر ثمود) ؛ لأنها تتحدَّث عن نبيِّ الله صالح وقصَّته المذكورة في أواخر السورة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الحجر:٨٠).

هذه السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

نقول في اللغة العربية : (تلك) اسم إشارة إلى المؤنَّث البعيد ، و(ذلك) اسم إشارة للمُذكَّر البعيد ، كما في سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة:١،٢) ، (ذلك) إشارةٌ إلى القرآن ، الكتاب البعيد في المنزلة العالية ، عُلُوًّا يُعتبر بعيدَ المرام ، رفيعَ المقام ، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ (البقرة:٢) ، الذي يُشار إليه بالبنان ، وهنا إشارة إلى الآيات ، ولذلك جاءت بهذه الصيغة : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي : آيات هذا القرآن المعجز العجيب الرائع .

الكتاب المسطور والقرآن المتلو :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

كما ذُكر في سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١،٢) .

وفي سورة يونس : ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (يونس:١).

وفي سورة يوسُف : ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (يوسف:١).

وفي سورة الرعد : ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ (الرعد:١) .

وفي سورة الشعراء : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (الشعراء:١،٢).

وفي سورة القصص : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (القصص:١،٢).

وفي سورة لقمان : ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (لقمان:١،٢)، وكلُّ هذه أوْصَاف للقرآن ، فهو كتابٌ مبين ، وكتابٌ حكيم ، وكتابٌ لا ريب فيه .

OBEIKAN.COM

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[1]، إذا ذُكر الكتاب فلا كتاب غيره ، هو الكتابُ الكامل الذي اجتمعت فيه كلُّ الخصائص ، وكلُّ المميِّزات في كلِّ الكتب السماويَّة ، فإذا ذُكر هو لم يُذكر غيره .

الله أكـــبر إن ديـــن محمـــد وكتابـــه أهـــدى وأقـــوم قـــيلا
لا تذكروا الكتبَ السَّوالف عنـده طلع الصـباح فـأطفئ القنـديلا[2]

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾[3]، هذا الكتاب هو القرآن المبين .

عُرِّف الكتاب ونُكِّر القرآن ، والتنكير هنا ـ كما يقول النَّحويون ـ للتفخيم والتعظيم ، أي : قرآنٌ مُبينٌ يتميَّز بالإبانة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤) ، فهو كتابٌ مُبينٌ ، أي : معناه بيِّنٌ في نفسه ، مُبيِّنٌ للحقائق ، كاشفٌ للأباطيل .

الإبانة من خصائص القرآن الكريم :

من خصائص القرآن : الإبانة ، فهو كتابٌ مبينٌ ، ومنْ إبانته أنه يفهمه الخاصُّ والعامُّ ، كلٌّ منهم يأخذ منه على قَدْر سَعَة واديه ، حتى الطفل الذي يقرأ القرآن الكريم .

قرأتُ القرآنَ الكريم وأنا طفل ، فكنتُ أفهم منه ، أقرأ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى:٣) ، فأعرف معناها الإجمالي ، ولكن قد لا أعرف ماذا تعني

---

(١) أطلق على ما أنزل الله عز وجل على نبيه (الكتاب) للدلالة على وجوب تدوينه ، بالكتابة ، و جعله بين الناس كتابًا محررًا يرجعون إليه ، محميًا من التحريف والتغيير . و(ال) في لفظ (الكتاب) للكمال .

(٢) من شعر : البوصيري .

(٣) أي : جليّ واضح من فعل (أبان) اللازم . ومُبين للعلوم والحقائق والتكاليف من فعل (أبان) المتعدي . يقال : أبان الشيء ، أي : وضح وظَهر فهو مبين ، ويقال : أبان نور المصباح جدران الغرفة ، أي : أظهرها وأوضحها .

OBEIKAN.COM

﴿ قَلَىٰ ﴾؟ ومعناها إجمالا : أنَّ ربنَّا ما تـركـك ولا هَجَرك ، ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى: ٤-٨)، كلمة : ﴿ عَآئِلًا ﴾ لا أفهم ما معناها ، ولكن أفهمها بالسياق : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، أي : فقيرًا فأغناك . وهكذا ، فهو قرآن مبين .

القرآنُ والكتاب شيءٌ واحدٌ :

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، بعضهم يريد أن يجعل الكتاب شيئًا والقرآن شيئًا آخر ، وهذا خَلَل وتحريفٌ وتزييف ؛ لأنه شيءٌ واحد ، يُسمَّى كتابًا ؛ لأنَّ الله جعله كتابًا ، وأمر الرسول ﷺ بكتابته ، يجب أن يُكتب ، ولذلك كان هناك كُتَّاب للوحي ، يكتبون كلَّ ما ينزل من القرآن الكريم ، وكان الكُتَّاب قليلين في ذلك الوقت .

(كان عثمان بن عفان وعلي يكتبان الوحي لرسول الله ﷺ ، فإن غلب كتب أُبي ابن كعب وزيد بن ثابت .

وكان أُبي بن كعب ممن كتب لرسول الله ﷺ الوحي قبل زيد بن ثابت ومعه أيضا ، وكان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحي ، وكان أُبي إذا لم يحضر دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت،وكان أُبي وزيد يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ .

ونحوه في العقد الفريد لابن عبد ربه ، قال القضاعي : فإن لم يحضر أحد منهم كتب الوحي مَن حضر من الكُتَّاب ، وهم : معاوية وجابر بن سعيد بن العاصي وإبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمي وحنظلة بن الربيع)[1] .

---

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية للعلامة عبد الحي الكتاني (١/١١٤،١١٥)، نشر حسن جعنا ، بيروت .

OBEIKAN.COM

وكانت أدوات الكتابة في غاية الصُّعوبة والعُسْر ، يكتبون على العظام ، و« العسب والرقاع واللخاف »[1]. والعُسُب : جمع عسيب ، وهو سعف النخل . واللِّخَاف جمع لَخْفَة ، وهي حجارة بيض رقاق . يكتبون على ما يتيسَّر من الأشياء . فهو كتاب .

وهو قرآنٌ ؛ لأنه يُقرأ ، اجتمع فيه أنه يُقرأ ويُتلى بالألسنة ، ويتناقله الناس مشافهةً ، ومع هذا يُكتب كتابةً ليكون هذا أوثق ، وفي هذه السورة قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وفي سورة النمل يقول الله تعالى : ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:١) ، نفس الشيء الكتاب هو القرآن ، والقرآن هو الكتاب ، ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل:١،٢).

تذكير الكفار بمصيرهم في الآخرة :

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾

هذا الكتاب الذي خُتمت السورة السابقة ـ سورة إبراهيم ـ بالإشارة إليه ، آخر آية فسَّرناها في سورة إبراهيم قول الله تعالى : ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (إبراهيم:٥٢)، هذا الكتاب جاء يُنْذر ، ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ ، جاء نذيرًا للكافرين ، جاء يُذكِّرهم بمَصَايرهم ، يُذكِّرهُم بعاقبة أمرهم ، يذكِّرهم بآخرتهم ، وأنه سيأتي يومٌ يندمون فيه غايةَ الندم ، ويتحسَّرون فيه غاية التَّحسُّر على موقفهم من هذا الدين العظيم ، على موقفهم من الإسلام ، سيأتي يوم يودُّون لو كانوا مسلمين ، ولكن هذا سيكون بعد فوات الأوان ، يندمون حيث لا ينفع الندم ، ويَتَحسَّرون حيث لا يُجْدي التَّحسُّر ، لأنَّ الله

---

(١) وفي الحديث عن زيد بن ثابت : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب والرقاع واللخاف وصدور الرجال . رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٦) .

OBEIKAN.COM

سبحانه وتعالى أعطاهم مُهْلة : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (فاطر:٣٧) ، لم يستفيدوا من هذا العمر المديد ، ولم يستجيبوا للنذير .

متى يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ؟

قد قرأنا في سورة إبراهيم : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ (إبراهيم:٤٤) ، حينما يلاقون ما وعدهم الله به من العذاب ، حين يدخلون النار جزاءَ ما كفروا ، وجزاءَ ما كسبت أيديهم ، وما قدَّمت أيديهم في الدنيا ، حينما يَلْقَون هذا العذاب الأليم في ذلك الوقت ، يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

تَحَسُّر أهل النار وتمنّيهم أن يكونوا مسلمين :

جاء في حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه ـ فيما رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ـ : « إذا اجتمع أهلُ النار في النار ، ومعهم من أهل القبلة مَنْ شاء الله ، قالوا : ما أغنى عنكم إسلامكم ، وقد صِرْتُم معنا في النار؟

قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها .

فسمع الله ما قالوا ، قال : فأُمر بمَن كان في النار من أهل القِبْلة فأُخْرِجوا .

فيقول الكفار : يا ليتنا كنَّا مسلمين ، فنخرج كما أُخرجوا» .

قال : وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ الٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر:١،٢) [١] .

كما صحَّت بذلك الأحاديث : أنَّ أهل التوحيد جميعًا يخرجون من النار ، ففي الحديث : « فيخرج من النار مَن قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢٤٢/٢) وصحح إسناده ووافقه الذهبي .

OBEIKAN.COM

ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار مَن قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة ، ثم يخرج من النار مَن قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»[1] . ولا يبقى فيها إلا مَن كفر كفرًا صريحًا ، وليس في قلبه شيءٌ من الإيمان ، هنا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

معنى (رُبَما) و(ودَّ) :

﴿ رُّبَمَا ﴾ هذه تخفيف (رُبَّ) ، هي لغة من اللغات[2] ، فالعرب قالوا : (رُبَّ) مشددة ، وقالوا : (رُبَ) بدون تشديد ، ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ﴿ رُّبَمَا ﴾ تأتي للتقليل ، وتأتي للتكثير أحيانًا ، يعني في أحيانٍ ، يشغلهم العذاب حتى عن هذا التَّمنِّي ، ولكن في بعض الأحيان يتذكَّرون ويقولون : يا ليتنا كُنَّا مسلمين .

الأصل في (رُبَّ) أنها تدخل على الأسماء ، ولكن إذا دخلت عليها (ما) كفَّتها عن العمل ، وجاز أن تدخل على الفعل ، ويكون ماضيا ، أو منزَّلاً منزلته في تحقيق وقوعه : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) ، كما قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنعام:٢٧) ، يا ليتنا نُردُّ إلى الدنيا مرةً أخرى ، فنُصدِّقَ بآياتِ الله ، ونكونَ من المؤمنين بالقرآن وبمحمد ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ ﴾ (الأنعام:٢٨) ، ستغلبهم طبيعتهم التي ترى الحقَّ أمامها وتُعرض عنه وتُكذِّب به ، على الكفر .

مادة (وَدَّ) لها معنيان : معنى الحب ، ومعنى التَّمنِّي ، تقول : (فلان يودُّ فلانًا) أي : يُحبُّه .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ، ومسلم في الإيمان (١٩٣) ، كما رواه أحمد (١٢١٥٣) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٣) ، عن أنس بن مالك .

(٢) (ربَما) قُرئ بالتخفيف والتَّشديد ، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم : (رُبَما) بتخفيف الباء ، والباقون : (رُبَّما) بتشديد الباء المفتوحة ، وهما لغتان .

ونقول : (يودُّ الشيء) يعني يتمنَّاه ، والودادة هنا بمعنى التَّمنِّي ، وخصوصًا جاءت بعدها ﴿ لَوْ ﴾ ، التي تفيد التمنِّي ، لأنَّ (لو) تأتي للشرط أحيانًا ، وتأتي للتَّمنِّي أحيانًا ، فهم يتمنَّون لو كانوا مسلمين ، لو استجابوا لدعوة محمَّد ﷺ ، لو كانوا آمنوا بالقرآن ، لو دخلوا فيما دخل فيه بلال وعمار وغيرهما ، من الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستهزئون بهم .

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ ، أي : لو استسلموا في الدنيا لأمر الله ، وآمنوا به وبرسوله .

أكل الكفار وتمتّعهم في شهواتهم ولذائذهم :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

اتركهم ـ يا محمد ـ في دنياهم التي اسْتَعبدتهم ، والتي صَرَفتهم عن الإيمان ، وصدَّتهم عن سبيل الله ، دعهم مع الشَّهوات واللذائذ ، ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ [1] التمتُّع هو التَّلذُّذ بالحياة والتنعُّم بما فيها من أعراض ، وما فيها من مَتَاع .

سمَّاه القرآن (متاع الغرور) ، فقال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) ، (الحديد:٢٠) .

ووصفه بالقلَّة فقال : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧)[2] ، وقال : ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨) .

---

(١) وهو أمر وعيد لهم وتهديد ؛ أي : ليسوا ممَّن يرعوي عمَّا هم فيه من الكفر والتكذيب ، ولا ممن تنفعه النصيحة والتذكير .

(٢) المتاع : كل شيء ينتفع به والفناء يأتي عليه في الدنيا .

OBEIKAN.COM

وقال بعد أن ذكر أصناف المحبوبات إلى الإنسان ، من الشهوات والنساء والبنين والأموال والخيل والأنعام والحرث : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤) .

وإنما هو ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة:٣٦) .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ التمتُّع إذا ذُكر في القرآن غالبًا ما يذكر بالذمِّ ، فقد قرأنا في سورة إبراهيم : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (إبراهيم:٣٠).

وفي سورة الزمر : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر:٨).

وفي سورة المرسلات : ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ (المرسلات:٤٦) ، هكذا التمتُّع شأن الكفَّار الذين تشغلهم المتعة ، وتشغلهم شهوات الدنيا ، يشغلهم إشباع الغرائز ، نسُوا عقولهم ، ونسوا ضمائرهم وقلوبهم ، ونسوا ربَّهم ، ونسوا آخرتهم ، وشُغلوا بهذا المتاع الأدنى .

وعيدٌ شديدٌ من الله عزَّ وجلَّ :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ ، كما جاء في القرآن في آيات أخرى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون:٥٤) ، ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (الزخرف:٨٣) ، ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (الطور:٤٥) ، وكل هذا وعيدٌ .

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ ، هذا وعيدٌ شديد من الله سبحانه وتعالى ، إنه لا يُبالي بهم ، اتركهم سَيُلاقون مصيرهم حتمًا : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ ﴾ ، كما قال تعالى عن أهل الكفر : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢).

إذا كانت المسألة مسألة أكل وتمتُّع ، فالأنعام تأكل كما يأكلون أو أكثر ممَّا يأكلون ؛ لأنَّ بطون الأنعام أكبر من بطون بني آدم ، بطن البقر أو الجاموس أو الجمل أكبر من بطن الإنسان ، ماذا يأكل الإنسان؟! البهائم والأنعام تأكل وتتمتَّع بأكلها ؛ لأنها لا تُفكِّر في شيءٍ آخر : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢) .

OBEIKAN.COM

الأمل بين الذمِّ والمدح :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : يشغلهم الأمل[1] . والأمل يعني الرجاء في الحياة ، والأمل في ذاته ليس مذمومًا ، بل هو ضرورة من ضرورات الحياة ، كما قال الشاعر :

أعَلِّلُ النفسَ بالآمال أرْقبها ما أضيقَ العيش لولا فُسحة الأمل[2]

لولا أمل الإنسان في النجاح : أمل الطالب في التفوُّق في آخر العام ، وأمل الغارس أن يجد في النهاية ثمرًا لغرسه ، أمل الزارع أن يجد حصاد زرعه ، هذا الأمل هو ما يدفع عَجَلَة الحياة إلى الأمام ، ولذلك قال أحد الحكماء : لولا الأمل ما غرس غارسٌ غرسًا ، ولا زَرَعَ زارعٌ شجرًا ، ولا بنى بانٍ بنيانًا .

الأمل هو الذي دفع العلماء إلى التقدُّم بالعلم ، حتى رأينا الثورات العلمية الكبرى ، فأمل العلماء هو الذي دفعهم إلى التفكير ، وإلى الدراسة ، وإلى متابعة الأمر ، حتى وصلوا إلى هذه المخترعات والمكتشفات الهائلة ، والقوانين والسنن الكونية والاجتماعة .

طول الأمل مذموم :

فالأمل مطلوب ، ولكن طول الأمل هو المذموم ، وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ ، الأمل المُلهي هو الأمل الطويل ، الذي يجعل صاحبه وكأنه مُخَلَّدٌ في الدنيا ، كأنَّه لا يموت ، كأنَّ الإنسان خُلق ليخلد ، وهو يرى مَنْ حوله يسقطون واحدًا بعد الآخر ـ الأقارب والجيران والزملاء والأصدقاء والأحباب ـ يختطفهم الموت مِنْ حوله ، ولكنه ينسى هذا ويقول : في العمر مُتَّسع ، وفي الزمن بقية .

---

(١) أي : يستهلك أوقاتهم وطاقاتهم ، والمراد بالأمل هنا : الأمل الذي ليس له واقع مطموع فيه ، بل هو أوهام وتصورات ذهنية ضائعة .

(٢) من شعر للطغرائي .

OBEIKAN.COM

ابن العشرين أو ابن الثلاثين يقول : سيصلح حالي وأتوب عند الأربعين ، وابن الأربعين أيضًا يقول : عندما أبلغ الستين ، وابن الستين يقول : عندما أبلغ الثمانين . وهكذا .

هذا هو طول الأمل ، الذي يقول فيه الحسن البصري رحمه الله : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[1] ، يقول الإمام القرطبي : (وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يُكسل عن العمل ، ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتقاعس ، ويُخلد إلى الأرض ، ويُميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان ، فلا يحتاج إلى بيان ، ولا يطلب صاحبه ببرهان .

كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويحيل على المبادرة ، ويحثُّ على المسابقة)

ويقول : (وطول الأمل داءٌ عضال ، ومرض مُزْمِن ، ومتى تمكَّن من القلب فسد مزاجه ، واشتدَّ علاجه ، ولم يفارقه داء ، ولا نجح فيه دواء ، بل أعيا الأطباء ، ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء .

وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحب لها والإعراض عن الآخرة)[2] .

وجاء في الحديث : « يهرَم ابن آدم وتشبُّ منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر »[3] .

طول الأمل هذا هو الذي يجعل الإنسان ينسى الموت ، ينسى الآخرة ، ينسى أنَّ كلَّ حيٍّ سيموت ، وكلَّ ميت سيُبعث ، وكلَّ مبعوثٍ سيُحاسب ، وكلَّ محاسب سيدخل إما جنةً وإما نارًا .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب في الزهد (١٠٧٨٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٢/١٠ ، ٣) بتصرف .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٢١) ، ومسلم في الزكاة (١٠٤٧) ، عن أنس ابن مالك .

OBEIKAN.COM

ولـــو أنـــــَّا إذا مِتْنـــا تُركْنـــا لكـانَ المـوتُ راحـةَ كـلِّ حـيٍّ
ولكنَّـــا إذا متـــــنا بُعثنـــا فنسأل بعــدها عــن كــلِّ شــيٍّ(١)

نسيان مصاير المكذِّبين :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ ، طول الأمل هو الذي أنساهم مصاير المُكذِّبين والعصاة من قبلهم ، الأمم التي كفرت بالله وكذَّبت رسله ماذا أصابهم؟ هم يمرُّون عليهم ، يمرون على قُرى لوط ، ويمرُّون على حِجْر ثمود ، ومدائن صالح ، ويَرَوْنَ آثار الظالمين ، ومع هذا لا يعتبرون .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، كلمة : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، هذا تحذيرٌ وإنذارٌ ووعيد . سوف يعلمون إذا جاء أجلهم ، حينما تحقُّ عليهم كلمة العذاب ، سوف يعلمون ماذا ينتظرهم ، وماذا يدَّخر الله لهم من عقوبةٍ في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وبال صنيعهم إذا عاينوا جزاءه ، هذا وعيدُ الله تعالى لهؤلاء .

دعوى القرطبي بنسخ هذه الآية بآية السيف :

ومِنْ أعجب ما قرأتُ حول هذه الآية ، ما قاله الإمام القرطبي في تفسيره قال : (هذه الآية منسوخة بالسيف)(٢).

يا عجبًا ما الذي يعارض آية السيف في هذه الآية؟! وهذه الآية تكرِّر معناها : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام:٩١) ، ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون:٥٤) ، ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ (الزخرف:٨٣)، (المعارج:٤٢) ،

---

(١) من شعر ينسب إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) ذكره القرطبي في التفسير (١٠/٢) .

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ (الطور:٤٥) ، أيُّ شيء يعارض آية السيف حتى تنسخ آية السيف هذه الآية وما في معناها ، ولكن وَلَعُ هؤلاء المفسِّرين بقصَّة النسخ ، والتوسُّع فيها ، والمبالغة في دعاوى النَّسخ ، جعل إمامًا كبيرًا مثل الإمام القرطبي المفسِّر العظيم يقول هذا : (هذه الآية منسوخة بالسيف) . يعني أُلغيت هذه الآية وما عاد لها فائدة ، لأنَّ آية السيف نسختها ؟ ! ألغت مفهومها ، هذه الآية ملغاة ! !

هذا الكلام لا يُقبل ، لأنَّ الله أنزل كتابه ليُعمل به ، وليُحكم به : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥) ، ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة:٤٩) .

ولذلك أكَّد المحقِّقون من العلماء أن النسخ لا يكون إلا بأمر محقق .

قال ابن حجر : (النسخ لا يصار إليه بالاحتمال)[١] .

وقال ابن حزم : (لا ننكر نسخ الأمر كلِّه بدليل يقوم على ذلك ، وإنما ننكر دعوى النسخ بلا دليل)[٢] ، وقال في المحلى : (ولا يصح دعوى النسخ إلا بنصٍّ مسند إلى رسول الله ﷺ)[٣] .

لا يجوز ادِّعاء نسخ الآية إلا بيقين ، لأنَّ ربنا أنزلها في كتابه ، فتقول : هذه الآية ملغاة وبطل مفعولها . لا بدَّ أن يكون عندك يقين عندما تدَّعي ذلك ، وإلا فقد افْتَرَيْتَ على كتابِ الله ، وافْتأتَّ على هذا القرآن العظيم ، وليس معنا يقين ، ولا شبه يقين ، ولا ظنّ بأنَّ هذه الآية نُسِخَت ، لأنَّ معناها بيِّنٌ ، وعيد للكفَّار

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٤٣/١٠) ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .
(٢) الإحكام لابن حزم (٣٥٩/٣) ، طبعة دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ .
(٣) المحلى لابن حزم (٥٢٩/٧) ، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

OBEIKAN.COM

المُكذِّبين ، الذين اغْترُّوا بأنفسهم وأموالهم وبدنياهم ، وأعرضوا عن الإيمان ، وأعرضوا عن الرسالة ، وعيد هؤلاء : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ ، أيُّ شيء نُسخ في هذا؟ هذا أمرٌ باقٍ ومستمرٌّ إلى يوم القيامة .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، هذه الآية مُحْكَمَة غير منسوخة ، باقية مستمرَّة ، والعملُ بها مطلوب إلى يوم القيامة . هي وعيد للكافرين ، وفيها تخويف للمؤمنين .

الخلاف في الآية الناسخة المُسمَّاة بآية السيف :

والعجيب أنه اختلف في الآية الناسخة التي سمَّوها آية السيف ، أيُّ آية هي ؟ اختلفوا فيها على أقوال : وأكثر الأقوال وأصحها أنها آية : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:٥) ، وهذه الآية نزلت في المشركين الذين تعدَّوا الحدود ، وطَغَوْا ، وآذَوْا رسولَ الله ﷺ ، ونَقَضُوا العهود ، فنزلت آية البراءة : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوبة:١) ، ثم أمهلتهم أربعة أشهر ، وبعد ذلك إذا انسلخ الأشهر الحُرُم ـ الأشهر الأربعة ـ فاقتلوا المشركين ، هؤلاء الذين نزلت فيهم الآيات ، هذه هي الحقيقة التي جاءت بها الآية .

دعاوى النَّسخ عند بعض المفسِّرين :

ولكن عَيْبُ كثير من المفسِّرين ، أنَّ كلَّ آية جاءت في القرآن يُشمُّ منها اللين أو الرفق أو الأمر بالصبر أو الحِلْم أو الدعوة يقولون : نسختها آية السيف : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصلت:٣٤) .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾(المعارج:٥)، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥) ، ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ (يونس:١٠٩) ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٧) ، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم:٦٠) ، ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (الطور:٤٨) ، ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (طه:١٣٠) ، فهذه الآيات وأمثالها التي أمرت بالصبر عامة ، أو الصبر لحكم الله ، أو على المشركين ، نسختها جميعا آية السيف .

وألحقوا بها الآيات التي تأمر بالإعراض عن المشركين ، والتي تأمر بالعفو والصفح ، أو تأمر بالدفع بالتي هي أحسن ، أو تأمر بجدال الكفار بالتي هي أحسن ، وكذلك الآيات التي تأمر بحسن معاملة الكفار ، وغيرها من الآيات ، نسختها آية السيف . وهذه مبالغة لا نقبلها . ونحن نؤمن بأن كتاب الله باق معمول به ، لا يجوز نسخه إلا بيقين ، ولايقين .

إهلاك أهل القرى في أوقات معلومة محدَّدة :

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

المقصود بالقرية : أهل القرية . تقول : اسْئل القرية . أي : أهل القرية ، هذا مَجَازٌ معروف ، نقول : حكمت المحكمة . والمحكمة هي المكان الذي يجتمع فيه القضاة ، فتقول : حكمت المحكمة . أي : قُضاتها . ويقول الله تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم يعقوب : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف:٨٢) ، ليس المقصود : اسئل المباني ؛ بل المقصود : اسئل أهل القرية .

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، كلُّ ما قدَّر الله عزَّ وجلَّ في هذه الحياة من أحداث ووقائع تنزل بالأفراد ، أو تنزل بالمجتمعات ، فهو مُقدَّرٌ عند الله ، مكتوبٌ في كتاب ، كلُّ شيء معلوم وله أجلٌ مُحدَّد ، ووقت مدوَّن : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨)، ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ (الإسراء:٥٨)، ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ (الحديد:٢٢) ، فكلُّ قومٍ استحقُّوا الهلاك لكفرهم وعِنَادهم وتَعدِّيهم على

رُسل الله والمؤمنين بهم ، هؤلاء سيأتيهم ما قدَّر الله لهم في موعده المُحدَّد المعلوم ، وهذا معنى : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، أي : أجلٌ مُحدَّد مكتوبٌ مسطور ، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (القمر:٥٢،٥٣)، فهو مُسطَّر عند الله .

الموعد المُحدَّد لإهلاك الأمم الظالمة :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [1]

كلُّ أمَّةٍ لها أجلٌ مُعيَّنٌ ، إذا كانت أمَّة صالحة فإنَّ الله سبحانه وتعالى يمدُّ لها أسباب الخير والفلاح ، ويُطعمها من فوقها ومن تحت أرجلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف:٩٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (المائدة:٦٦) ، هذا مكتوبٌ أيضًا عند الله ، الأمَّة التي قدَّر الله لها أن تُؤمن وتعملَ صالحًا يؤتيها الطيِّبات ، ويُبارك في حياتها ، والأمَّة التي قدَّر الله أن يُهلكها ، وهو لا يهلك الأمم اعتباطًا ولا عَبثًا ولا ظلمًا ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود:١١٧) ، إذا كان أهلها مُصْلحين لا يمكن أن يُهلكها الله ، إنَّما يُهلك الله مَنْ ظَلَم وأفسد ، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف:٥٩) ، يوجد موعد مُحدَّد لإهلاك الظالمين ، ولذلك يقول هنا : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ (الحجر:٥) ، الذي حدَّد الله فيه هلاكها ، إذا كان الله قد حدَّد هلاكها في سنة معيَّنة ، وفي شهر محدَّد ، وفي يوم معلوم ، سيأتي الهلاك في اللحظة المُقدَّرة .

---

(١) الأمة : الجماعة يؤلِّف بينها دينٌ أو عقيدة . أو أيّ فكرة مما يجمع الناس .

OBEIKAN.COM

استعجال الكفار العذاب ومباغتتهم به :

والكفار يستعجلون نزول العذاب : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ (العنكبوت:٥٣) ، فهناك أجل مُسمًّى مُعيَّن حدَّده ربنا ، لولا هذا الأجل لجاءهم العذاب ، ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٣) .

من سُنن الله عزَّ وجل : أن يباغتهم العذاب من حيث لا يتوَّقعون ، يأتيهم بياتًا وهم نائمون ، يأتيهم ضُحًى وهم يلعبون ، هكذا ، ولكن يأتيهم وهم في غفلة يباغتهم ويفاجئهم .

سُنَّة الله في تقدير الآجال للأمم والأفراد :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ ، لا تُقدَّم ولا تُؤخَّر ، إنما يأتي عذاب الله وعقابه في الأجل المُسمَّى ، في الموعد المحدَّد كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٤)، لا استئخار ولا استقدام ، بل هو في اللحظة المُحدَّدة ، وهذا ينطبق على الأمم ، وينطبق على الأفراد : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح:٤) ، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون:١١).

استهزاء المعاندين المُكذِّبين برسول الله :

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

يتحدَّث الله عن هؤلاء المشركين المُعاندين المُكذِّبين ، وكيف يستهزئون برسول الله ﷺ ويقولون في لغة مُتهكِّمة : ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، فهم لا يُصدِّقون أنَّ هناك ذِكرًا منزَّلاً عليه من السماء ، فقولهم : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ ، تفيد أنه يُوجَدُ شيءٌ نازلٌ من أعلى إلى أسفل ، أي : من عند

OBEIKAN.COM

الله جاءت به الملائكة إلى محمَّد ، هم يسخرون ويقولون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ ، كما تزعُم وتدَّعي : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [1] : فاقدٌ للعقل والتفكير السويِّ ، حيث تدعو بدعوةٍ تخالف ما عليه الناس ، تُسَفِّه دينَ الآباء والأجداد ، تدعُو إلى ترك الآلهة التي يظنُّون أنها تنفع وتضرُّ ، وهي لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تُعطي ولا تمنع ، ولا تُبصر ولا تسمع ، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، ولكنهم يزعمون هذا . يا من يقف ضدَّ العقائد السائدة ، ويقاوم وحده المجتمع كله ، وينادي بدعوة التوحيد التي ترفضها الكافَّة والأغلبيَّة ، يقولون :

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ (ص:٧) . ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص:٥) ، ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ (ص:٨) ، فهم يَسْتغربون أن يُدعوا إلى دعوة التوحيد ، هذا شيءٌ عُجَاب .

ولماذا هو وحده الذي نُزِّل عليه الذكر من بيننا ، وهناك أُناسٌ عظماء : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) ، مثل الوليد ابن المغيرة في مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟!! .

وَصْفُ الأمم المُكذِّبة رُسُلَ الله بالجنون :

هكذا كان موقف هؤلاء السُّفهاء : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، وَوَصْفُ رُسل الله بالجنون متواترٌ عن الأمم المختلفة ، ما أكثر ما وُصِفَ المرسلون بأنهم مجانين . وكلُّ إنسان صاحب دعوة يؤمن بها ، ويدعو إليها ، وهي تخالف أعراف الناس ، وخصوصًا إذا خالفت أعرافَ أكابرِ القوم ، والعِلْية من الناس ـ كما يُسمُّونهم ـ يطلقون عليه هذا الوصف : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ؛ لأنه يُضَحِّي ويُغَامر بنفسه وبحياته ويقف ضدَّ التيار ، يعني : يسبح ضد التيار ، فيقولون : هذا مجنون .

---

(١) أكد كبراء مشركي مكة استهزاءهم بـ (إنَّ) ، والجملة الاسمية ، واللام المزحلقة .

سيدنا نوح عليه السلام قالوا فيه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون:٢٥) ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ (القمر:٩) ، هكذا وُصف الأنبياء ، وكما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات:٥٢) .

وسيدنا موسى عليه السلام قالوا فيه : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات:٣٨،٣٩) .

هكذا الأمم قبل العرب ، وقبل قريش ، قالوا مثل هذا ، كما قالوا : في محمد إنه ساحر أو مجنون . وقالوا فيمن سبقه من الرسل : ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الذاريات:٥٣) . يعني : هل وَصَّى بعضَهم بعضًا بأن يقولوا هذا ؟! فكلُّ أمة تقول هذه المقولة ، كأنَّ هناك وصيَّة من الأمة التي قبلها ، والحقيقة أنه ليس هناك وصيَّة ، إنما يقول الله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ، أي : اشتركوا في الطغيان ، فاشتركوا في النتيجة ، تشابهت قلوبهم كما قال الله تعالى : ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (البقرة:١١٨) ، فتشابهت أقوالهم ؛ لأنَّ المصدر واحد ، وهو الطغيانُ على الحقّ وتَجاوز الحدِّ .

لقد افتروا على رسول الله ﷺ قالوا : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:٦) ، وقالوا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾(يونس:٢)، وقالوا: ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ (الطور:٣٠)، وقالوا : ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ (الأنبياء:٥)، وقالوا : ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(الفرقان:٥). وقالوا ما قالوا، وكلُّها أكاذيب وأباطيل لا تقوم على حُجَّة ، ولا تُبنى على منطق .

قَلْبُ الحقائق عند المشركين :

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، انظروا كيف يكون محمد عليه الصلاة والسلام مجنونًا ، وهؤلاء المشركون الذين يستندون للأصنام ،

الذين ينحتون الأصنام بأيديهم ثم يعبدونها ، ويسألونها أن تَجْلِبَ لهم الخير ، أو تدفع عنهم الضُّر ، أهؤلاء عقلاء ومحمد مجنون؟! انظروا كيف تُقلب الحقائق ، المجانين يدَّعون على أعقل الناس ، وأذكى الناس ، وأفضل الناس : أنه مجنون ، هذا هو العَجَب .

الله تعالى يقول : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:١-٤) ، أنت صاحبُ الخُلُق العظيم ، كيف يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا ؟ ! المجنون لا يتصرَّف تصرُّفًا مفهومًا ، لأنَّ حياته خَلْط وخَبْط ، يعمل الشيء الآن ، ويهدمه بعد قليل ، ويقول الآن شيئًا ، ويقول شيئًا ينقضه بعد ذلك ، فحياته متناقضة ، وأقواله متناقضة ، وهذه الأشياء غير مفهومة ، فكيف يكون محمَّدٌ مجنونًا ، لا يمكن أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا : ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

طلب المشركين إتيان الملائكة :

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ لَّوْ مَا ﴾ ، هنا معناه التَّحضيض مثل : (لَوْلا) و(هلاَّ) ، أي : هلاَّ تأتينا بالملائكة وتحضرهم عيانًا ، إن كنت من الصَّادقين في دعواك بأن الملائكة تنزل عليك ، هاتِ الملائكة ، اجعلنا نراها تأتي وتشهدُ لك . وهكذا رأينا المكذِّبين للرسل في الرسالات المختلفة يلجئون إلى هذه الدعوى ، نزول الملائكة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٢١،٢٢)، الملائكة إذا نزلت ستنزل بعذاب الله .

حتى فرعون قال عن سيِّدنا موسى : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف:٥٣) ، ومشركو مكة حين طلبوا من النبيِّ آيات تعجيز قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء:٩٠-٩٣) إلخ .

الردُّ على اقتراحات كفَّار قريش :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [1]

فهؤلاء الذين يطلبون نُزولَ الملائكة ، ويقولون : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

يردُّ الله تعالى عليهم : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ، ما نُنَزِّل الملائكة حين نُنَزِّلها إلا تنزيلاً مقترنًا بالحقّ ، وعلى الوجه الذي اقتضته الحكمة ، وهي تنزل إمَّا بالوحي وإمَّا بالعذاب : إمَّا بالوحي للرسل ، أو بالعذاب على مُكذِّبيهم ، حين يأتي الوقت المعلوم : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الحجر:٤) ، تأتي الملائكة حين نزولها بالحقِّ ويكون فيه هلاكهم ، ويكون فيه نقمة الله تعالى عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان:٢٢).

---

(١) قرأ شعبة : (ما تُنَزَّل الملائكةُ) . وقرأها حفص ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : (نُنَزِّل الملائكةَ) ، وقرأها الْبَزِّي : (ما تَّنَزَّل الملائكةُ) بتشديد التاء مع المد المشبع . وقرأها باقي القراء العشرة : (ما تَنَزَّل الملائكةُ) وبين هذه القراءات تكاملٌ ، والمؤدّى واحد .

OBEIKAN.COM

انتهاء الإمهال عند نزول الملائكة :

﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

هم يستعجلون نزول الملائكة ، وستأتي الملائكة عند نزولها بالحقِّ ، ومن الحقِّ : ما قدَّر الله لهم من عذاب ومن هلاك . وهم يستعجلون مصيرَهُم ، يستعجلون هلاكَهم ، إذا نزلت الملائكة فلا إنذار ولا إهمال ، ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ، في هذه الحالة انتهى الإمْهَال ، انتهت المُهْلة التي أُعطِيَتْ لهم ، انتهت الفُرصة التي أُتيحت لهم ، إذا نزلت الملائكة كان هلاكهم ودمارهم فَعَلَام يستعجل هؤلاء ؟ ! ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [1] .

الذكر هو القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

الذكر هو القرآن ، للأسف وجدنا بعض المغرورين من الدُّخلاء على القرآن وعلى علوم القرآن ، ممَّن يدَّعون أنهم يقرءون القرآن قراءةً معاصرة ، قراءة جديدة ، ويحسبون أن الطبري وابن الجوزي والزمخشري والرازي وابن كثير والقرطبي وابن تيمية وابن القيم وكلُّ مفسِّري المسلمين ـ تفسيرا بالرواية وتفسيرا بالدراية ـ لم يفهموا القرآن ، هم الذين يفهمونه وحدهم ، ويقولون : أنا أبدأ من الصفر ، لا تقل لي : حديث مرفوع ، ولا حديث موقوف . ولا تقل لي تفسير ابن عباس . ولا تقل لي : تفسير ابن مسعود ولا غيره . أنا أبدأ من جديد . ويأتوننا

---

(١) قال العلامة ابن جزي الغرناطي في (التسهيل) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ : إذًا : حرف جواب وجزاء ، والمعنى : لو أنزل الملائكة لم يؤخَّر عذاب هؤلاء الكفار ، الذين اقترحوا نزولهم ، لأنَّ من عادة الله أنَّ من اقترح آية فرآها ولم يؤمن ، أنه يُعجَّل له العذاب ، وقد علم الله أنَّ هؤلاء القوم يؤمن كثيرٌ منهم ، ويؤمن أعقابهم ، فلم يفعل بهم ذلك .

OBEIKAN.COM

بالعجب ، ومن العَجَب الذي جاءوا به أنهم قالوا : الذكر شيء ، والقرآن شيء ، والفرقان شيء . . وهكذا .

الذكر هو القرآن : ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، وهل نُزِّل عليه شيء غير القرآن؟! حتى المشركون قالوا هذا : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾(ص:٨)، والله سبحانه قال هذا : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل:٤٤) .

لماذا سُمِّي القرآن ذكرًا ؟

الذكر هو القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ سُمِّي ذكرًا لأنه يُذكِّر بالله وبعبادته ، ويُذكِّر بتشريعه وآدابه ، ويُذكِّر بالأخلاق وأصول الفضائل ، ويُذكِّر بالآخرة ، ويُذكِّر بكلِّ ما هو خير ، إنه هو التذكير : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى:٩) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) ، هو مُذكِّر ، ولذلك سُمِّي ذكرًا .

كما سُمِّي فرقانًا ؛ لأنه يفرِّق بين الحقِّ والباطل : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١) .

الردُّ على أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم :

وهؤلاء يزعمون أنَّ الذكر شيء ، وأنَّ القرآن شيء ، وأنَّ الكتاب شيء ، والذكر شيء ، والقرآن يكذبهم ويرد عليهم : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:١) ، ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل:١) .

ونقرأ في سورة الشورى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت:٤١)، الذكر هو الكتاب العزيز ليس شيئًا آخر ثم يقول : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ (فصلت:٤٤) ، فهو القرآنُ ، وهو الذكرُ ، وهو الكتابُ في سياق واحد ، ولكنَّ

هؤلاء جعلوا القرآن عضين ـ مفرَّقا ـ يقرؤن القرآن منفصلاً بعضه عن بعض ، لا يستحضرون ما وَرَدَ في الموضوع من آيات ، ولذلك يقعون في هذه الهاوية من سُوء الفَهم ومن ضلال الفكر ، والعياذُ بالله .

لم يتأهَّلوا لتفسير القرآن ، لم يعرفوا القرآن حقَّ المعرفة ، لم يعرفوا السنة النبويَّة ، وهي بيان القرآن ، لم يعرفوا كيف يُفهم القرآن ، لم يفهموا أصول الفقه ، وما وضعه العلماء من قواعد لحُسْن الفَهم ، كيف يُحمل المطلق على المقيَّد ، والعام على الخاص ، وكيف يفسِّر الواضح غير الواضح ، والمفصَّلُ المُجْمَلَ .. إلخ ، لم يتأهَّلوا للقرآن ، ولكن هذه دعواهم .

الفرق بين نزَّلنا وأنزلنا :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ، أي : القرآن ، كلمة ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ـ كما قلنا ـ من فوق ، أحيانًا ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ ، وأحياناً ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ، إذا رُوعي إنزال القرآن مرَّةً واحدة قال : ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ ، وإذا رُوعي أنه نُزِّل في ثلاث وعشرين سنة نجومًا مفرَّقة على حسب الحوادث ، يقال : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ بصيغة المُعظِّم نفسه ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ لم يُنزله أحدٌ غيرنا ، ولا يُمكن لأحدٍ أن ينزله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢).

المؤكِّدات على حفظ القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، نحن المتكفِّلون بحفظه ، فلا يقدر أحد على الزيادة فيه ، ولا النقصان منه ، ولا تبديله ، بخلاف غيره من الكتب ، التي استحفظها الله عباده فقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(المائدة: ٤٤).

أكَّد الله حفظ القرآن بهذه الصيغة ، وعلماء اللغة يقولون : الجملة الإسميَّة أَوْكَد من الجملة الفعليَّة ، فإذا أُكدت الجملة الإسمية بـ(إنَّ) كان هذا زيادة في التأكيد ، فنحن نقول : إنَّ : حرف توكيد ونصب . تقول : محمدٌ حاضر . وتقول : إنَّ محمدًا حاضر . فهذا توكيد ، فإذا أدخلت اللام في الخبر كان هذا زيادة توكيد على توكيد ، تقول : إنَّ محمدًا لحاضر . وهنا يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

فرق بين أن يقول : (ونحفظه) . وبين أن يقول : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ . ولم يقل سبحانه : نحن له حافظون . لا إنما قال : ﴿ إِنَّا ﴾ ، ولم يقل : إنا له حافظون . لا ، إنما قال : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ . وهذا تأكيد في حفظ هذا الكتاب العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) .

تميُّز القرآن الكريم بالحفظ دون غيره من الكتب السماويَّة :

ولذلك لا يوجد كتاب من الكتب الدينيَّة محفوظٌ كما حُفظ القرآن الكريم ، وقد هيَّأ الله سبحانه لحفظ القرآن ، أن يُحفَظ في الصدور والسطور ، فهذا القرآنُ محفوظ في الصُّدور ، متلوٌّ بالألسنة ، مكتوبٌ في المصاحف ، يحفظه الآلاف ، بل عشرات الآلاف ، بل مئات الألوف ، بل الملايين[1] يحفظون القرآن الكريم كله ، حتى الصبيان يحفظون هذا القرآن . هاتِ لي الكتاب المُقدَّس ، هل يحفظه الكرادلة والأساقفة والقُسس ، هل يحفظون الكتاب المَقدَّس؟ لا يوجد مَنْ يحفظ الكتاب المقدَّس ، ولا نصفه ، ولا ربعه ، ولا خمسه ولا عشره ، إنما يحفظون أجزاء منه .

---

(١) قال الإخوة في ليبيا : إنهم عندهم مليون حافظ بأسمائهم وملفاتهم . وقد بدأوا في المليون الثاني .

OBEIKAN.COM

أسباب حفظ القرآن من التغيير والتبديل :

القرآن يحفظه الرجال والنِّساء ، والكبار والصِّغار ، وقد هيَّأ الله تعالى له أسباب الحفظ .

بعض الناس يقول : ما دام الكتاب محفوظًا ، فلماذا كتبه الصحابة؟ ولماذا جمعه سيدنا عثمان؟! وهذا من أسباب الحفظ . يحفظه أي : يُهيئ له من الأسباب والوسائل ما يجعل هذا القرآن محفوظًا ، لا يعتريه تغيير ولا تبديل ، ولا حذف ولا نقص . نحن نقرأ القرآن كما كان يقرأه النبيُّ ﷺ وأصحابه ، بِغَنِّه ومدِّه ، وحركاته وسكناته . ووضع في هذا : علم التجويد ، وعلم مَخَارج الحروف ، وعلم القراءات . وهذه العلوم لِيُحْفَظ هذا القرآن ، كما أُنزل مُشافهةً ، ثم جمع على عهد أبي بكر ، ثم كُتب في عهد سيدنا عثمان (مصحف الإمام) ، وَوَزِّع على أمصار المسلمين وأقطارهم ، ليُقرأ على حرف واحد ، حتى لا يختلف فيه المسلمون .

حتى الآن لا يَجْرُؤ أحدٌ أن يُغَيِّر رسم القرآن ، تغيَّرت قواعد الرسم وقواعد الإملاء ، ولكن بقي القرآن كما هو بالرسم العثماني : ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ (آل عمران:١٣٠) ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ (البقرة:٢٧٥) ، مكتوبة في القرآن الرِّبَـوٰاْ (راء باء واو ألف) ، وفي الرسم العادي الربا (راء باء ألف) ، هذا مقتضى القواعد ، وكذلك كُتب في القرآن بالرسم العثماني ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة:٢٣٨)، (لام واو وتاء مربوطة) بقي القرآن كما هو ، هذا كتاب محفوظ[1] .

انظر الآن إلى المسابقات التي تُرصد للقرآن الكريم في بلاد الدنيا ، شيءٌ هائل ، كيف سخَّر الله الناس ، وجنَّد هؤلاء في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ليكافئوا حفَّاظ

---

(١) تنظر فتوى فضيلة الشيخ حفظه الله حول الرسم العثماني من فتاوى معاصرة (١٣/٢) . طبعة المكتب الإسلامي ، سنة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

OBEIKAN.COM

القرآن بمكافئات سخيَّة ، وكيف وُجدت مراكز تحفيظ القرآن في مساجد الدنيا كلِّها ، كلُّ هذا تأكيدٌ لوعدِ الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

إسلام أحد اليهود بسبب حفظ القرآن من التَّغيير والزيادة والنقص :

ذكر الإمام القرطبي : (كان للمأمون ـ وهو أمير إذ ذاك ـ مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب ، حسن الوجه ، طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة .

قال : فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون ، فقال له : إسرائيلي؟ قال : نعم .

قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع . ووعده . فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف .

قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال : فتكلم على الفقه فأحسن الكلام . فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون ، وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس؟ قال له : بلى .

قال : فما كان سبب إسلامك؟ قال : انصرفت من حضرتك ، فأحببتُ أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت تراني حسن الخط ، فعمدتُ إلى التوراة فكتبتُ ثلاث نسخ ، فزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني ، وعمدتُ إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتُها البيعة فاشتريت مني ، وعمدت إلى القرآن فعملتُ ثلاث نسخ وزدتُ فيها ونقصتُ ، وأدخلتها الوراقين فتصفَّحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي .

قال يحيى بن أكثم : فحججتُ تلك السنة ، فلقيتُ سفيان بن عيينة فذكرتُ له الخبر ، فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ .

قال قلتُ : في أي موضع؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة:٤٤) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، فحفظه الله عزَّ وجلَّ علينا ، فلم يضع[1].

يعني طُلب منهم أن يحفظوا كتاب الله ، فوكَّل الله حفظ التوراة إلى الأحبار والرهبان ، فلم يقوموا بحقِّ الحفظ ، وأضاعوا كتابه فغُيِّر وبُدِّل ، أمَّا القرآن فلم يَكِلْه الله إلى أحدٍ ، ولم يستحفظه أحدًا ، ولكن تولَّى حفظه بنفسه ، ولذلك لا يستطيع أحدٌ أن يُغيِّر فيه أو يُبَدِّل . ولذلك لو أنَّ شيخًا كبيرًا مهيبًا من كبار العلماء أو كبار القرَّاء غيَّر أو بَدَّل أمام صِبيان الكُتَّاب لهاج عليه الصبيان .

كما لاحظت في صباي أنَّ أحد الصبيان قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ قرأها : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ، كلُّ الصبيان هاجوا عليه ، لا يوجد ﷺ في القرآن ، لا يوجد إلا محمد ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (آل عمران:١٤٤).

الربط بين طلب المشركين نزول الملائكة ونزول الكتاب على الرسول :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

كان المشركون يطلبون من النَّبيِّ ﷺ على سبيل التَّحدِّي : أن تُنزَّل الملائكة من السماء لتُصدِّقه فيما جاء به ، وَرَدّ الله عليهم بأن الملائكة لا تنزل أكثر ما تنزل إلا بالعذاب ، والله تعالى لا يريد أن يَسْتأصلهم كما اسْتَأْصَل الذين من قبلهم ، عادًا وثمود .

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ (الحجر:٨) ، يقول الله تعالى : نحن نزَّلنا عليكم ما ينفعكم ويهديكم ، ويأخذُ بأيديكم إلى السعادة في

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٠، ١٨١) .

OBEIKAN.COM

الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، بدل تَنزيل الملائكة بالعذاب نزَّلْنا عليكم القرآن ، الذي يأتيكم بالهدى والنُّور .

التَّسرية عن الرسول ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١)

يخاطب الله سبحانه النَّبيَّ ﷺ ، يُعزِّيه ويُسلِّيه عمَّا أصابه من كبراء مشركي قومه ، من الاستهزاء والسخرية ، حين قالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، إذ كبُر في نفوسهم أن يكون كتابه الذي يتلوه عليهم ذكرًا للعالمين ، وأن يكون هو رسولاً للعالمين .

أراد الله أن يُسَرِّيَ عن رسوله ، بأنه ليس وحده الذي ابْتُليَ باستهزاء المشركين والمُكذِّبين ، كلُّ الرسل في أقوامهم أصابهم ما أصابه ، إذا كان هو عليه الصلاة والسلام قد قيل له : مجنون ، وساحر ، وكاهن ، ومُفْتَر . وقيل له : أساطير الأوَّلين اكْتَتَبْتها . . إلى آخره .

وقد حكى القرآن استهزاءهم بالنبي فقال : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٦) ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان:٤١) ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) ، لماذا لم ينزل على أحدِ العظماء من قريش مثل :

---

(١) المفعول محذوف دلت عليه كلمة (أرسلنا) أي : أرسلنا رسلاً من قبلك ، والشِّيع : جمع شيعة ، وهي الطائفة التي تتشيَّع لمذهب أو رجل . والأوَّلون : الماضون من الأمم . والمراد بِشِيَع الأوَّلين : جماعات الكفر والشرك الذين أرسل الله لهم رسلاً من أهل القرون السالفة ، فاستهزؤوا بهم .

الوليد بن المغيرة ، أو من عظماء الطائف مثل : عروة بن مسعود الثقفي ، لِمَ ينزل على هذا الفقير اليتيم؟

استهزاء الأمم المُكذِّبة برسل الله :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الحجر:١١)

لَسْتَ يا محمد وحدَك الذي استهزأ به قومُه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ (النحل:٣٦) ، ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:٢٤) .

هؤلاء الرسل وهؤلاء النُذُر لقُوا من قومهم الهُزء والسخرية الكثير ، حتى حَاقَ بهم ما حاق من عذاب الله عزَّ وجلَّ . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنعام:١٠) ، استهزؤوا برسلهم من أجل ما عندهم من مال ، أو من أجل ما عندهم من جاه ، أو من أجل ما عندهم من علم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (غافر:٨٣) ، استهزؤوا برسلهم فقالوا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر:٢٤).

وقالوا : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ (هود:٢٧).

وقالوا ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء:١١١)، أي : الفقراء والمساكين ، لم يتَّبعك الملأ الأشراف والكبراء ، لأنَّ الكبراء دائمًا يجدون أنَّ الرسالات ضدُّ مصالحهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا

لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٣) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (سبأ:٣٤).

المُتْرفون الذين يعيشون في هذه الدنيا في التَّرف وبُحْبُوحة النَّعيم ، ويأكلون الأموال بالباطل ، ويجمعون الأموال ، ويبنون القصور ، بلا حساب ، هم دائمًا أعداءُ كلِّ رسالة ، وخصومُ كلِّ دعوة إلى الإصلاح ، فهؤلاء كانوا دائمًا ضدَّ الأنبياء عليهم السلام ، واستهزؤوا بهم ، ملوك وجبابرة وقفوا ضد الرسل . كما قال فرعون : ﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ (الزخرف:٥١-٥٣).

وهكذا كان المُكذِّبون دائمًا في الأمم : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الحجر:١١).

كما قال الله عزَّ وجل : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (يس:٣٠).

انظروا إلى هذا التَّعبير : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، والرسولُ لم يأتِ إلا لخيرهم ، إلا لمصلحتهم ، إلا لهدايتهم ، إلا للأخذ بأيديهم إلى سعادة الآخرة والأولى ، ومع هذا كانوا به يستهزؤون .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ كَانُوا۟ ﴾ تدلُّ على شأنهم ، كأنَّ هذا سجيَّة وطبيعة لهم ، فلم يستهزؤوا به مرَّةً أو مرَّتين ، ﴿ كَانُوا۟ ﴾ ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الاستهزاء طبعهم وسجيتهم ، وكلمة ﴿ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، فعل المضارع يدلُّ على التَّكرار والتَّجدُّد ، فهم دائمو الاستهزاء بكلِّ رسول يأتيهم من عند الله .

مرجع الضمير في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ الضمير عائدٌ إلى أيِّ كلمة؟ هل هو عائدٌ إلى ﴿ ٱلذِّكْرَ ﴾ ، يعني كذلك نَسْلكُ القرآنَ في قلوب المجرمينَ ، يسمعون ألفاظَهُ وحروفه ، ولكنَّه لا يدخل في قلوبهم .

وكلمة (سَلَك) يسلُك سَلْكا السَّلك : أى : أدخل شيئا في شيء آخر ، مثل : إدخال الخيط في المخيط (الإبرة) ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ (المدثر:٤٢) أي : ما أدخلكم في سقر؟ وهنا : (نسلكه) ندخله في قلوب المجرمين ؛ لا دخول النور لمن يستنير به ، ولا دخول الهدى لمن يهتدي به ، ولكن دخول لمن يُعرض عن الحق ، وقد دخل إلى قلبه ، فأعرض عنه ، ونأى بجانبه ، وهكذا كان هؤلاء يسمعون القرآن ، ولكن لا يسمعون بعقولهم وقلوبهم وضمائرهم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت:٢٦) شوِّشوا عليه حتى لا يسمعه الصبيان والنساء والعبيد فيتأثرون به ، هكذا كانوا لا يريدون أن يسمعه أحد سماع المهتدي ، سماعَ من يبحث عن الحق ، سماع من يريد أن يقتنع بالأمر إذا كان فيه دلائل بيِّنة ، وحجة ظاهرة .

وبعضُ المُفسِّرين قالوا : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ ، أى : نَسْلُك الاستهزاءَ والتَّكذيبَ والكفرَ في قلوب المجرمين ؛ وهذا محتمل أيضًا . ولم يقل : (في قلوب الكافرين) ولكن قال : ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ليُسجِّل عليهم هذه الصفة : صفةَ الإجرام ، أن من يقف هذا الموقف : مَنْ يرى أمامه الهدى ولا يهتدي ، ومَنْ يرى أمامه الضوء ولا يستضيء ، ومن يرى أمامه الحقَّ ، ولا يؤمن به ، ويجحده ، يقترف جريمة كبرى .

OBEIKAN.COM

سُنَّة الله في الأَولين :

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١)

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : بالذكر الذي أُنزل على النبي ، ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هم على شاكلة مَنْ كان قبلهم من الأمم ، الذين أُرسلت إليهم الرسل فكذَّبوهم : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(الشعراء:١٠٥)، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:١٢٣) ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء:١٤١) ، كذَّبوا نوحًا ، وكذَّبوا هودًا ، وكذَّبوا صالحًا ، وكذَّبوا شعيبًا ، وكذَّبوا لوطًا ، إلى آخر الأنبياء ، هؤلاء المُكذِّبون ، هذه سُنَّتهم ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

أو مَضَتْ سنَّة الأوَّلين ، لأنهم إذا وقفوا هذا الموقف الذي يُعاند الحقَّ ، ويستهزئُ به ، ويكفر به ، ويصدُّ عنه ، فإنَّ اللهُ يُنْزل بهم عقوبته .

هذه أيضًا سُنَّةٌ من سُنَنَ الله كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧) . كيف دمَّر الله عليهم؟

هكذا رأينا تدميرَ اللهِ لهؤلاء الأقوام ، أَخَذَهُمْ أَخْذَ عزيز مُقْتَدِرْ ، ونجَّى الرسل ومَن معَهم من المؤمنين ، كما نَجَّى سيدنا نوحًا عليه السلام في السفينة : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (الشعراء:١١٩،١٢٠) ونجَّى هودًا ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٧٢) ، ونجَّى صالحًا ، ونجَّى شعيبًا ، ونجَّى المؤمنين معه .

---

(١) أي : لا يؤمنون بالذكر الذى أُنزل إليهم ، والرسول الذي أرسل إليهم ، وقد خَلَت سُنَّة الأوَّلين : تقدَّمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء ، ومضت سنته سبحانه في تعذيبهم وإهلاكهم ، وسنته في نصر رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم . وفي هذا تسليةٌ وطمأنة ووعد بالنصر والتأييد للرسول ﷺ وللذين آمنوا به واتبعوه .

عِنَاد كفَّار قريش وإصرارهم على الكفر وإنكارهم كلَّ آية :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥).

يُحدِّثنا القرآن عن عِناد هؤلاء القوم من كفَّار قريش ، عن مُكابرتهم الغليظة ، ينكرون الشمس في رابعة النهار ، بل أكثر من ذلك . اللهُ تعالى يقول : إنَّهم أرادوا نزول الملائكة لكي يؤمنوا ، ولو نزلت الملائكة ما آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١١١) .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أي : هيَّأنا لهم سبيلاً ، ومكنَّاهم من الصُّعود فيه ، ﴿ فَظَلُّواْ ﴾ استمرُّوا في زمنٍ مديد ، ﴿ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي : يصعدون في هذا الباب المفتوح إلى السماء .

والعروج : الارتفاع والصُّعود ، ومنه المعراج النبوي ، والمراد : أنَّهم يعرجون في هذا الباب المفتوح إلى السماء .

وكلمة ﴿ فَظَلُّواْ ﴾ ، أي : بالنَّهار ، لأن ظلَّ للعمل في النهار ، وبات للعمل في الليل ، ﴿ فَظَلُّواْ ﴾ أي : ضحى النَّهار ، ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ، أي : يصعدون في ملكوت السماء والفضاء يَرَوْنَ ما فيه من العجائب ، تحقيقًا لصدق الرسالة .

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [1]، رُغْم هذه الآية البيِّنة الواضحة ، لو فتحنا عليهم بابًا إلى السماء عَرَجُوا فيه ، حتى وصلوا إلى السماء ، لقالوا : إنما ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾ ، أي : أبصارنا سُدَّت . تقول : سكَّر

---

(١) قرأ ابن كثير : (سُكِرَت) بتخفيف الكاف ، أي : حُبست ومُنعت النظر ، وقرأ الباقون : بكسر الكاف مع التشديد أي : سُدَّت ، ويحتمل أن يكون مشتقًّا من السكر ، فيكون معناه : أُجبرت أبصارنا فرأينا الأمر على غير حقيقته ، أو من السُّكر وهو السد ، فيكون معناه : منعت أبصارنا من النظر بسبب السحر .

OBEIKAN.COM

الباب أي : أغلقه ، أو سُكِّرت : أصبحنا في حالة السكران ، أخذت أبصارنا أو غشي علينا ، أو مُنِعَت . وكلُّ هذه معاني متقاربة .

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ ، أي : نحن لم نَرَ الأشياءَ رؤيةً حقيقيَّةً ، ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ، أي : أنَّ محمدًا سَحَرنا ، وجعلنا نَظُنُّ أننا عَرَجنا إلى السماء وما عرجنا ، لا يمكن أن يؤمنوا كما قال تعالى أيضًا : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧) ، كانوا يطلبون نزول كتاب من السماء : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ (الإسراء:٩٣) أي : لو نَزَّلنا عليك كتابًا من السماء ، ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، هو جاء من السماء ، ولمسوه بأيديهم ، ولو نظروا بأعينهم لردوا ذلك ، ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧) ، فالعِناد هو العِناد ، والمكابرة هي المكابرة ، فليس عندهم علَّة ولا عذر في الحقيقة سوى العِناد الباطل ، الذي يتمسَّك بالباطل ، ويرى الحقَّ أمامه واضحًا جليًّا كالشمس في ضحى النهار ، ومع هذا لا يؤمنون .

OBEIKAN.COM